

المخطوطات بمنطقة زاوية كنتة (ولاية أدرار) خزائن أولاد اسي حمو بلحاج أنموذجا

أ. أحمد جعفري
الجامعة الأفريقية - أدرار.

سأحاول في هذا البحث الحديث أولا عن خزائن المخطوطات بمنطقة زاوية كنتة⁽⁰¹⁾ عامة وخزائن أولاد اسي حمو بلحاج خاصة وهذا لسببين اثنين أولهما أهمية منطقة زاوية كنتة في خارطة خزائن المخطوطات بالمنطقة منذ القديم، وثانيا غياب الحديث شبه الكلي عن خزائن أولاد اسي حمو بلحاج وارتباطه أولا وأخيرا بخزائن أخرى في الزاوية وهذا لاعتبارات عدة. ومن هنا جاءت هذه الدراسة في محاولة أولية كما قلت لتسليط الضوء على هذه الخزائن تأسيسا ومؤسسا وتأثرا وتأثيرا بالإضافة إلى الإشارة أخيرا إلى وضعية الحفظ الحالية وما يشوبها من مخاطر ومعوقات.

وبداية الحديث عن منطقة زاوية كنتة يقتضي أولا تحديدها الجغرافي ذلك أننا لانعني بالمنطقة قصر أو زاوية آل كنتة، وإنما نعني به تلك المنطقة الممتدة إداريا في حديدها الأساسيين من قصر أظوى جنوبا إلى قصر مكيد شمالا والتي تشمل إلى هذا قصور تيوريرين، وأدرور، وشباني، وزاجلو، وأولاد الحاج، وتبركان، ولنصير، وتاخفيف، وآدمر، وتاظلوت، وزاوية الشيخ المغيلي، وبوعلي، وأغرماملال.

عُرفت هذه المنطقة تاريخيا بعواصم ثقافية كبرى كان لها وإلى وقت قريب أثر بالغ الأهمية في تاريخ المنطقة والبداية من قصر مكيد أولا هذا القصر العريق الذي لازال يحتفظ لنا وإلى الآن بكثير من المعالم التاريخية الكبرى والتي تدل دلالة واضحة على أهمية القصر. وما يزر به من آثار، لكننا اليوم وبكل أسف لا نقف بالقصر على أي شاهد تاريخي مخطوط يحكي لنا عن قصة هذا القصر في قرونه الغابرة، رغم ما وقفت عليه شخصيا ضمن بعض فهارس المخطوطات الأفريقية (مركز أحمد بابا للتوثيق والدراسات بتمبكتو مالي) من ذكر لبعض الشخصيات العلمية التي تنسب إلى هذا القصر أذكر منهم : الشيخ سيدي محمد المكيدي البحامدي التواتي هكذا نسبته، والذي له مخطوطة بهذا المركز تحت رقم 7122 وهو عبارة عن رسالة. وما يقال عن قصر مكيد في ضياع جميع شهادته المخطوطة تقريبا يقال عن قصر توريرين، وقصر آدرور واشباني وأولاد الحاج وتبركان، والمناصير وقصر تخفيف وإن اختلفت نسبة الضرر مع غيره ثم قصر آدمر وتاظلوت وأغرماملال، وأخيرا قصر أظوى. وفي مقابل كل هذا نجد قصورا أخرى بالمنطقة (منطقة زاوية كنتة) لاتزال إلى الآن تحتفظ بكثير من المعالم والآثار المخطوطة الشاهدة على مكانة القصر خاصة والإقليم التواتي عامة نذكر منها ترتيبا قصر زاقلو بخزانته الشهيرة وبعلمائه الأفذاذ منهم تمثيلا : سيدي محمد بالعالم الزجلالوي صاحب ألفية الغريب والنوازل المختلفة، ومنهم سيدي محمد بن أبي بكر بن بلقاسم

الزجلاوي صاحب مخطوط السر المغتبط، والشيخ سيدي علي بن حنيني وغيرهم، وبالقرب من قصر زاجلو يقف قصر بوحامد التاريخي شامخا هو الآخر ولنا أن نعود أيضا إلى بعض فهارس المخطوطات المحلية والأفريقية لنقف على عشرات العلماء البوحامديين موطننا والجعفرين نسبا. وفي الشق الجنوبي لقصر زاوية كنتة فإن الحديث قد يطول عن قصري بوعلي وزاوية الشيخ المغيلي بما بدأه البرامكة أولا وختمه الشيخ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي الغني عن أي تعريف به وبمخطوطاته المتعددة. وقد يكون لبعض القصور المذكورة وغيرها من المندثرة حديث آخر غير الذي قلنا، يكون قد فاتنا بسبب عدم الإطلاع وندرة الوثائق. وبين هذا وذاك أردنا الحديث تركيزا عن خزائن أولا اسي حمو بلحاج الأشراف وسط الزاوية الكنتية ممثلين في خزائن : المرحوم الشيخ مولاي علي بن مولاي إسماعيل المتوفى سنة (1309هـ) وخزانة المرحوم الشيخ مولاي إسماعيل بن المهدي المتوفى سنة 1940م. وخزانة الشيخ مولاي اليزيد المتوفى سنة (1326هـ) وأخيرا خزانة المرحوم مولاي سالم بن مولاي إسماعيل المتوفى سنة (1984م).

وقبل الحديث عن خزائن الأشراف بهذه المنطقة لابد من الإشارة إلى أن أول شريف نزل بالزاوية الكنتية على ما يذكر الرواة⁽⁰²⁾ كان هو الشيخ مولاي امحمد الحاج أكبر أبناء سيدي حمو بلحاج، وحل بها تحديدا في شهر شعبان (1064هـ) وهو جد شرفاء قصر زاوية كنتة جميعا بالإضافة إلى الشرفاء في كثير من قصور الولاية أدرار،

وله ذرية داخل الوطن وخارجه في نواقشط وفي تونس وفي فرنسا وغيرها.
توفي الشيخ مولاي أمحمد الحاج صبيحة الخامس من شهر رمضان
(1101هـ). وخلف ابنه الشيخ مولاي علي من بعده.

وبداية الحديث عن خزائن أشرف قصر زاوية كنتة هي من
أقدم هذه الخزائن تأسيسا وأعني بها خزانة المرحوم الشيخ مولاي
علي بن مولاي إسماعيل المولود بتاريخ 1259هـ الموافق لسنة 1843م
والمتوفى سنة 1309هـ الموافق لسنة 1891م.. درس المرحوم أولا في قصر
زاوية كنتة على يد الطالب حمو، أولا ثم الشيخ ولد سيدي بابا
الأنصاري ثانيا. ولما تفقه في العلم تولى سلطة العرش بعد وفاة أخيه
سنة 1300هـ الموافق لسنة 1882هـ (عرش أولاد السي حمو بلحاج من
قصر اظوى إلى قصر مكيد). وفي هذه السنة تحديدا كما هو
معلوم كان دخول الشيخ بوعمامة إلى ضواحي دلدول.

ولقد كان لأمر توليه سلطة العرش أثر بالغ الأهمية في
رحلات الشيخ وتنقلاته داخل المنطقة وخارجها، وهو ما أهله لكثرة
الإطلاع وملاقة العلماء في توات والمغرب الأقصى، وبعد سنوات من
هذا التاريخ أسس خزانته للمخطوطات وجلب إليها العديد من النسخ
المخطوطة بعد رحلته إلى أرض المغرب. كما ساهم أيضا في إثراء
خزانة الشيخ سيدي المختار بن المصطفى الكنتي بالقصر.

عاصر الشيخ مولاي علي عدة علماء من المنطقة من زاجلو
وكوسام وتمنطيط وغيرها وكانت بينهما مبادلات علمية، ومؤلفات

شتى لكنها لم تصل إلينا في شيء وما وصل منها ضمن محتويات
الخزانة حاليا فإنه يدمي القلب ويعجز اللسان عن التعبير لأن عمق
الجرح فوق ما يحمل اللفظ ويقوى عليه إعصار أي مؤرخ. توفي الشيخ
مولاي علي في قصر إقلي بولاية بشار بعد عودته من المغرب سنة
1309هـ الموافق لسنة 1891م.

❖ أما الخزانة الثانية عند شرفاء الزاوية الكنتية فهي خزانة مولاي
إسماعيل بن مولاي المهدي المتوفي سنة (1359هـ / 1940) بقصر
زاوية كنته.

ولد الشيخ مولاي إسماعيل سنة 1279هـ الموافق لسنة 1862م،
بقصر زاوية كنته، وبها درس على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي
الصغير بن المصطفى. وبعد فترة وجيزة أبدى الشريف مولاي إسماعيل
تفوقه على بقية أقرانه وهو ما أهله لتلقي إجازة التدريس من شيخه
الكنتي، الشيء الذي مكنه من فتح مدرسته الخاصة في المكان
المسمى بالحويطة داخل قصر زاوية كنته.

وفي هذه الفترة إزداد نشاط الشيخ المعرف فتولى بنفسه ختم
صحيح البخاري بعد وفاة شيخه بكل ما تعرفه المناسبة من حضور
ومشاركة لجل علماء المنطقة. وهي الفرصة التي وجد فيها المرحوم
مولاي إسماعيل مناسبة لتلاقح الأفكار مع علماء عصره كالشيخ
سيدي أحمد ديدي الذي كان يرأسه على الدوام، والشيخ سيدي
محمد البلبالي، والشيخ سيدي الحاج محمد القاضي وأبوه سيدي

البكري، وكالقاضي سيدي سالم بملوكة، والشيخ القاضي سيدي باحمو وأبوه بقصر أنزقمير، والشيخ سيدي محمد أبا الحاج الجعفري بتلولين.

ولعل هذا النشاط العلمي هو وحده الذي أهله أيضا ليكون كاتب ابن عمه القائد مولاي أحمد قائد العرش، وهو الطريق أيضا الذي فتح أعين الشريف للانضمام إلى بقية الرفاق في الكفاح ضد المستدمر الفرنسي وما بعض الآثار المادية المتواجدة بخزائنه حاليا كمجموعة من الجرائد والوثائق الثورية التي لها علاقة بالأمير عبد القادر من جهة وبعض قطع الأسلحة الحربية (مجموع 13 تسدة للبارود و16 نوع شفر وهما للبارود وبجسم صغير) إلا خير شاهد على ذلك.

هذا عن مسيرة الرجل الثورية أما عن مسيرته العلمية في تأسيسه لخزانة المخطوطات فإن الروايات الشفهية هنا تؤكد أنها تعود لجده من أمه المسمى محمد أبو هريرة والذي كان يقطن حينها بقصر تزلزلين غرب قصر أولاد الحاج، ولما توفي الجد أبو هريرة ورث الشيخ مولاي إسماعيل خزانة جده بحكم اهتمامه بالموضوع وتضلعه في شتى العلوم. ثم شرع بعد ذلك في توسيع الخزانة بما عرف عنه من جودة خطه وكثرة نسخه للمخطوطات المختلفة.

وتذكر الروايات الشفهية هنا أنه وفي سنة 1955 م كان بالخزانة قرابة 600 مخطوط. لكنها مع مرور الأيام كانت تتلاشى تدريجيا بفعل ما تعرضت له أولا من حرق سنوات القحط المعرف

حيث جمعت جل بقايا هذه المخطوطات في فناء الدار الكبيرة وأبرمت فيها النار جهلا من طرف وكيل الشيخ مولاي إسماعيل على أملاكه كما أخبرنا بذلك ابن الشيخ مولاي إسماعيل الذي كان صغيرا وقتها كما قال.

وفي سنة 1958 ولما تولى الابن سيدي محمد أمور الخزانة بنفسه وجد بها كما قال مخطوطات تصل إلى 80 مخطوط مختلفة الأحجام والمواضيع ويذكر منها من أنفسها مخطوطا حول تاريخ الجزائر من الحجم الكبير وأوراقه من النوع المتوسط. ونسخة مخطوطة للقرآن الكريم بألوان الأحمر والأخضر والأسود هي الغاية في الدقة والإتقان.

وقبل الابن مولاي محمد كانت الخزانة تحت إشراف أخيه مولاي عبد القادر الذي درس على والده وتولى خلافة الخزانة من بعده، والذي كانت له اتصالات بتلاميذ المدرسة الطاهرية بسالي لمؤسسها الشيخ مولاي أحمد وكان له هو الآخر باع في تطويرها والمحافظة عليها. حتى وفاته وله إلى الآن بعض المخطوطات بخط يده داخل الخزانة.

لكن الزائر الآن لهذه الخزانة وسط القصبة بقصر زاوية كنتة يجد أن جل هذه العناوين لم تعد إلا بقايا قطع صغيرة تبكي حالها وسط تراكمات النسيان ولا مبالاة الإنسان وبالقرب منها ينام

بعض ما تبقى من هذا الإرث - على أقله- ويستيقظ على ركام بنيان، أو عضة حيوان أو إهمال إنسان.

❖ الخزانة الثالثة في الموضوع هي للشيخ سيدي مولاي اليزيد المتوفى سنة 1381هـ الموافق لسنة 1961م.

ولد المرحوم مولاي اليزيد بن مولاي مبارك سنة 1326هـ الموافق لسنة 1908م بقصر زاوية كنته، وبها تلقى علومه الأولية على يد شيخه الطالب سالم سرقمة، ثم انتقل لدراسة الفقه على يد شيخه مولاي إسماعيل. بعد ذلك انتقل المرحوم إلى قصر تمنطيط وهو في مقتبل عمره، وهناك درس على يد سيدي أحمد ديدي لمدة ستة شهور ثم عاد إلى زاوية كنته ليكمل على يد شيخه مولاي إسماعيل مجددا، وبعد فترة اتصل بالشيخ مولاي سالم الذي فتح له باب مدرسته على مصراعيه وأجازه في التدريس ليخلفه في المدرسة كمدرس بها وكإمام لصلاة الجمعة. وما هي إلا سنوات حتى توافدت الطلبة على مدرسة الشيخ مولاي اليزيد من كل فج، وشيئا فشيئا توسعت المدرسة وازداد نشاطها المعرفي الذي استفاد منه جملة من الطلبة نذكر منهم : مولاي عبد الرحمان بن مولاي أحمد، مولاي عبد الله بن مولاي أحمد، مولاي الناجم بن مولاي إسماعيل، مولاي التهامي بن سيدي محمد، سيدي محمد بن إسماعيل المهدي، سيدي محمد بن سيدي حمادي مولاي مبارك، بو جمعة بن لحسن سرقمة، الطالب بالعيد بن سالم كادي، بن إسماعيل مولاي سالم

وأخوه أحمد، الشيخ سيدي الحاج بن المهدي، مولاي فضيل صادقي، اسماعيلي محمد بن الحاج وأخيه مولاي علي، مولاي امحمد أحمد حساني، الحاج محمد بن الحاج البركة وغيرهم كثير.

عرف الشيخ مولاي اليزيد بكثرة مطالعته وبهبه الشديد لشتى العلوم وما يحكى عنه هنا أنه تعلم بعض أبجديات الفرنسية ليأمن شر أصحابها، فكان يقرأ لسكان القصر بعض المراسلات الفرنسية وغيرها. كما كانت تجمععه علاقات حميمة مع بعض علماء عصره نذكر منهم الشيخ المغفور له سيدي أحمد ديدي في تمطيط بحكم المشيخة، والشيخ المرحوم مولاي أحمد الطاهري في سالي، والشيخ المرحوم الحاج محمد بلكير والشيخ سيدي محمد بلعالم بزاغوا، والحاج عبد الكريم بقادير، والسي محمد أبا الحاج الجعفري بتلولين، والحاج عبد القادر ولد الشيخ ومولاي سالم اسماعيلي وغيرهم. بالإضافة إلى علاقته مع بعض الأعيان في زاجلو وتيوريرين وغيرها.

وفي هذه المرحلة والشيخ مولاي اليزيد في أوج عطائه المعرفي فكر في تأسيس خزانة للكتب والمخطوطات النفيسة وهو ما كان له بالفعل منطلقا في ذلك من خطة أساسية رباعية الأبعاد وهي :

أولا : نسخ أهم ما وقف عليه من المخطوطات بخزائن المنطقة المختلفة.

ثانيا : شراء معظم ما استطاع الوصول إليه من الكتب والمخطوطات النفيسة.

ثالثا : قسم الهدايا من الكتب والمخطوطات التي كانت تهدى له بعد نسخها له خصيصا.

رابعا : بعض جهوده الشخصية في التأليف على أقلها. والتي نذكر منها تمثيلا لاحصرا : نظم الأخضرى وشرحه، والذي أخذه معه إلى السعودية وهناك تركه سنة (1372هـ) كما يقول الرواة. وذكر لنا هنا ابن أخيه ووارث خزانته من بعده الشيخ سيدي محمد بن مولاي حمادي أنه في سنة 1958 لما تولى الإشراف على الخزانة المذكورة وجد بها تابوتين من الحجم الكبير وصندوق شاي حجم (20كيلوا) كلها مملوءة بالمخطوطات، بالإضافة إلى مخطوطات أخرى كانت موضوعة على الرفوف.

وإذا كان هذا هو وضع الخزانة الزاهر قبل ثمانية وأربعين سنة من هذا التاريخ فقط فإنها اليوم على العكس منه تماما بفعل ما تعرضت له أولا من أمطار غزيرة سنة 1372هـ وبفعل تفاعلات الزمن على مر السنوات التالية. لكنها مع هذا هي الآن في أفضل حال من نظيراتها السابقة فهي لا تزال والحمد لله تحتفظ لنا إلى الآن بما يزيد عن الأربعين مخطوطا وإن كانت في جلها مبتورة ومتداخلة، وهي حسب إطلاعنا الأولي في مواضيع مختلفة منها الفقه والتفسير والنحو وبعض النوازل وغير ذلك.

❖ أما الخزانة الأخيرة في هذه الجولة فهي خزانة مولاي سالم بن مولاي اسماعيل بن سيدي محمد بن مولاي اسماعيل المتوفى سنة (1984م)

مات عنه أبوه وهو صغير وكفله أخوه مولاي الشريف، ودرس القرآن أولا على يد الطالب سالم سرقمة في قصر زاوية كنته والفقه على يد مولاي إسماعيل بن سيدي جلول ثم انتقل إلى تمنطيط وهو في مقتبل عمره. بعد رجوعه من تمنطيط فتح مدرسة قرآنية بعد وفاة الشيخ مولاي اليزيد سنة 1381هـ وعلى يديه تخرج جملة من الطلبة نذكر منهم :

❖ أخوه مولاي الناجم بن مولاي إسماعيل

❖ أكثر من 15 طالبا من قصر تبركان وحدها منهم : سيدي علي بن العربي

❖ ومن قصر المناصير وتاخيف عشرة أشخاص تقريبا منهم : عمار بن خليل، الحاج محمد ولد الحاج البركة، الحاج عبد الله لمن، ومن زاوية كنته مولاي إدريس والطالب بلعيد وأكثر من ثلاثين (30) شخص آخرين.

وفي هذه الفترة كانت تجمعهم هو الآخر علاقات علمية مع بعض أقرانه من علماء المنطقة منهم : الحاج عبد القادر نوماس، الحاج أحمد البكري، الحاج عبد القادر ولد سيدي سالم، مولاي أحمد الطاهري، الشيخ الحاج محمد بلكبير، السي محمد بالحاج

بتلولين، الشيخ والحاج محمد ولد حمزة الإمام في عين صالح،
وسيدي الحبيب من سالي، وسيد أحمد النحوي، ومن تيميمون الحاج
عبد القادر من زاوية الحاج بلقاسم، ومن تيلولين الحاج أحمد ولد
الطالب الصافي، ومن تيمي سيدي عبد العزيز مهدي وسيدي سالم
من زاوية سيدي البكري، ومن تتلان أولاد بقادير وأولاد الحاج قاسم
منهم الحاج مبروك وأخوه الحاج عبد الله.

ومع هؤلاء جميعا كانت المراسلات العلمية والفتاوى ومعها
كانت المبادلات العلمية للكتب والمخطوطات المختلفة، وشيئا فشيئا
وجد الشيخ مولاي سالم نفسه أمام كم هائل من الكتب
والمخطوطات وهو ما أهله لإثراء خزانته للمخطوطات والتي ورثها عن
أبيه مولاي إسماعيل أولا فأضاف إليها عديد المخطوطات المختلفة
وبعد وفاته تولاها أخوه مولاي الناجم وأضاف لها هو الآخر ما
استطاع الوصول إليه.

والخزانة في وضعها الحالي هي الأكثر حفظا وتنظيما من بين
مثيلاتها من الخزائن الثلاثة المذكورة بها ما يزيد عن الخمسين (50)
مخطوطا. في مواضيع الفقه، والتفسير والحديث، والنحو وغير ذلك.

هذا عن علماء ومخطوطات أولاد اسي حمو بلحاج داخا
قصر زاوية كنتة أما خارج هذا القصر فإن الحديث قد يطول مع
البريشيين في مخطوطاتهم المنتشرة في أدغال إفريقيا خصوصا والتي
نذكر منها : مخطوط رسالة إلى القاضي أحمد بابا، لمؤلفه : أحمد

بن عبد الله بن محمد بن الواحد البريشي التواتي وهو في 20 صفحة تقريبا ومحفوظ بمركز أحمد بابا للدراسات بتمبكتو. وهي تحت رقم : 5611. وغيرها أما الحديث عن الرقانيين فهو أطول بالنظر إلى آثارهم المخطوطة مع الشيخ مولاي علي وابنه الشيخ مولاي عبد الله^(03*) وابنه الشيخ مولاي عبد المالك^(04*) وغيرهم.

هذا ما مكنا الوقت من الوصول إليه في تاريخ أولا د اسي حمو بلحاج بقصر زاوية كنتة وخزائنهم للمخطوطات وولتمس العذر في كل ما شاب الموضوع من نقص لأنه موضوع ميداني انطلقنا فيه أولا وأخيرا من الروايات الشفهية المسموعة بعين المكان للقائمين على هذه الخزائن حاليا والذين شاءت القدرة الإلهية أن يغادروا واحدا منهم قبل لملت أوراق هذا الموضوع وعرضه ألا وهو الشيخ سيدي محمد بن مولاي حمادي سماعيل الذي توفي يوم الاثنين 15 ماي 2006 فالله نسأل له الجنة ونعيمها. وأسأله عز وجل لي ولكم حسن الختام والموت على الإسلام آمين يارب العالمين.

الهوامش :

01 / زاوية كنتة هي عاصمة توات الوسطى أو توات الحنة تعود في تأسيسها إلى الشيخ سيدي أحمد بن محمد والتي أسسها على الأرجح سنة 999 هـ. ينظر : محاضرة عن العائلة الكنتية. للشيخ الحاج امحمد الكنتي شيخ الزاوية الكنتية حاليا.

02 / ينظر : محاضرة أولاد أسي حمو بلحاج والتواجد بتوات. الأستاذ مولاي عبد الله سماعيل. ص 05 وما بعدها.

03 / ينظر : مخطوط الدرة الفاخرة. ص 11. وكتاب سلسلة النواة ج/01. ص 21 وما بعدها ومحاضرة الحاج امحمد الكنتي حول حياة الشيخ مولاي عبد الله الرقاني.

04 / ينظر : كتاب سلسلة النواة ج/01. ص 34 وما بعدها ، وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. للبرتلي. ص 201 ، ومحاضرة الحاج امحمد الكنتي حول حياة الشيخ مولاي عبد الله الرقاني.

المصادر والمراجع :

- الروايات الشفهية للقائمين على هذه الخزائن حاليا والمسجلة بتاريخ : الأحد 26 صفر 1427 هـ الموافق ل : 26 مارس 2006 م وهم كل من :

❖ الشيخ سيدي محمد بن سيدي حمادي.

❖ الشيخ سيدي محمد ولد مولاي الشيخ.

❖ الشيخ سيدي محمد بن مولاي سماعيل بن مولاي المهدي.

❖ الشيخ سيدي محمد بن مولاي حمادي ابن أخ مولاي اليزيد والمشرف على خزانته حاليا.

❖ / المخطوطة :

- مخطوط الدرة الفاخرة.

❖ / المطبوعة :

- سلسلة النواة ج/01.ص 21 وما بعدها.
- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. للبرتلي.
- محاضرة : أولاد أسي حمو بلحاج والتواجد بتوات. الأستاذ مولاي عبد الله سماعيل.
- محاضرة حياة الشيخ مولاي عبد الله الرقاني. للشيخ الحاج امحمد الكنتي.
- محاضرة : العائلة الكنتية بمنطقة توات. للشيخ الحاج امحمد الكنتي شيخ الزاوية الكنتية حاليا.